سورة يونس

مكية، إلا قوله تعالى: {وَمِنهُمْ مَّن يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَّن لاَّ يُؤْمِنُ بِـهِ وَرَبُّـكَ أَعْلَـمُ بِـ لْمُفْسِـدِينَ} فإنهـا مدنيـة لأنها نزلت في اليهود، مائة وتسع آيـات، وكلماتهـا ألـف وثمانمائة واثنتان وثلاثون كلمـة، وحروفهـا سـبعة آلاف وخمسمائة وسبعة وتسعون حرفاً

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. لَر تِلْكَ ءايٰتُ لْكِتٰبِ لْحَكِيمِ} أي تلـك الآيـات الحاصـلة فـي سـورة «الـر» هـي آيـات ذلـك الكتـاب المحكم الذي لا يمحوه الماء ولا يغيره كرور الدهر. {أَكَانَ لِلنَّاسِ} أي لأهل مكة {عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ} أي إيحاؤنا {إِلَىٰ رَجُـلٍ مِّنْهُـمْ} أي من أهل مكة {أَنْ أَنذِرِ لنَّاسَ} أي إنه أي الشأن قولنا أنذر النـاس أي خوف جميع الناس كافة بالقرآن فإن أهـل مكـة كـانوا يقولـون: إن الله ما وجد رسولاً إلى خلقه إلا يتيم أبي طالب {وَبَشِّـرِ لَّـذِينَ ءامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ} أي بأن لهم منزلة رفيعة عنـد ربهم {قَالَ لْكَٰفِرُونَ} أي المتعجبون {إِنَّ هَٰذَا لَسٰحِرٌ مُّبِينٌ}.

قرأ ابن كثير وعاصم وحمزة والكسائي بصيغة اسم الفاعل أي إن الكـافرين لمـا جـاءهم رسـول منهـم فأنـذرهم وبشـرهم قـالوا متعجبين: إن هذا الذي يدَّعي أنه رسـول وهـو سـيدنا محمـد صـلى الله عليه وسلم ساحر ظـاهر. والبـاقون «لسـحر» بكسـر السـين وسـكون الحـاء أي إن هـذا القـرآن لكـذب ظـاهر، ووصـف الكفـار القرآن بكونه سحراً يدل على عظم القرآن عندهم من حيـث تعـذر عليهم فيه المعارضة فأرادوا بهـذا الكلام أن القـرآن كلام مزخـرف حسن الظاهر ولكنه باطل في الحقيقـة، وهـذا ذم لـه. أو أرادوا بـه أنه لكمال فصاحته وتعذر مثله جـار مجـرى السـحر وهـذا مـدح لـه وإنما لـم يؤمنـوا بـه عنـاداً {إِنَّ رَبَّكُـمُ للَّـهُ لَّـذِي خَلَـقَ لسَّمٰوٰتِ وَلأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ} أي مقدار ستة أيـام معلومـة {ثُـمَّ سْتَوَىٰ عَلَى لْعَرْشِ} وهو الجسم المحيط بسائر الأجسـام. والمعنـى ثـم تصرف الله في ملكه وليس معناه أنه تعالى خلق العرش بعد خلق السموات والأرض لأن تكوين العرش سابق على تخليق السـموات والأرضين بدليل قوله تعالى وكان عرشه على الماء، بل المراد أنـه تعالى لما خلـق السـموات والأرض واسـتدارت الأفلاك والكـواكب، وجعل بسبب دورانها الفصول الأربعة ففي هـذا الـوقت قـد حصـل وجود هذه المخلوقات وهذا ملك الله تعالى إنما حصـل بعـد تخليـق السموات والأرض فصحَّ إدخال حرف يفيد التراخي علـى الاسـتواء على العرش والله أعلم بمراده {يُدَبِّرُ لأَمْرَ} أي يقدر على الـوجه

الأكمل أمر ملكوت السموات والأرض {مَا مِن شَفِيعٍ إِلاَّ مِن بَعْدِ إِذْنِهِ} أي إن الله تعالى ينفرد في التدبير فإن تدبيره تعالى للأشياء لا يكون بشفاعة شفيع ولا يستجرىء أحد أن يشفع إليه في شيء إلا بعد إذنه تعالى ولا يدخل أحد في الوجود إلا بعد أن قال تعالى له: كن حتى كان {ذٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَ ٱعْبُدُوهُ} فإن العبادة لا تصلح إلا له وهو المستحق لجميع العبادات لأجل أنه هو المنعم بجميع النعم {أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ} فالتفكر في مخلوقات الله تعالى واجب، والاستدلال بها على عزته تعالى وعظمته وجلالته أعلى المراتب، {إِلَيْهِ} تعالى {مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً} بالبعث فلا حكم إلا حكمه ولا نافذ إلا أمره {وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا} أي وعدكم الله بالرجوع إليه وعداً وحق ذلك الوعد حقاً {إِنَّهُ يَبْدَأُ ٱلْخَلْقَ} لبأمرهم بالعبادة ثم يميتهم {ثُمَّ يُعِيدُهُ} من العدم بالبعث {لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَاتِ بِ ٱلْقِسْطِ} أي بعد لهم. والمراد به هنا الإيمان وهذا تنبيه على أن المقصود بالذات من الإبداء والإعادة هو الإثابة وإيصال الرحمة، وأما عقاب الكفرة فكأنه داء ساقه إليهم سوء اعتقادهم وسوء أفعالهم {وَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ} أي ماء حار قد انتهى حره {وَعَذَابٌ أَلِيمٌ} أي بالغ في الإيلام {بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ} أي بسبب كفرهم. {هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَ ٱلْقَمَرَ نُوراً} أي الذي خلق الشمس ذات ضياء، والقمر ذا نور فما بالذات ضوء وما بالعرض نور، فنور القمر مستفاد من الشمس {وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ} أي جعل للقمر وهيأ له منازل وهي ثمانية وعشرون منزلاً، وأسماؤها: السرطان، والبطين، والثريا، والدبران، والهقعة، والهنعة، والذراع، والنثرة، والطرفة، والجبهة، والذبرة، والصرفة، والعواء، والسماك، والغفر، والزباني، والإكليل، والقلب، والشولة، والنعائم، والبلدة، وسعد الذابح، وسعد بلع، وسعد السعود، وسعد الأخبية، وفرغ الدلو المقدَّم، وفرغ الدلو المؤخر، وبطن الحوت. فينزل القمر كل ليلة في واحد منها على تقدير مستوٍ من ليلة المستهل إلى الثامنة والعشرين فإذا كان في آخر منازل له دق واستقوس، ثم لا يرى ليلتين أو ليلة إذا نقص الشهر ويكون مقام الشمس في كل منزلة منها ثلاثة عشر يوماً {لِتَعْلَمُواْ} باعتبار نزول كل منهما في تلك المنازل {عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَ ٱلْحِسَابَ} أي حساب الأوقات فيمكنكم ترتيب مهمات المعاش من الزراعة والحراثة ومهمات الشتاء والصيف {مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذٰلِكَ} أي المذكور من الشمس والقمر على تلك الأحوال {إِلاَّ بِ ٱلْحَقِّ} أي الأعلى وفق الحكمة ومطابقة المصلحة في أمور المعاملات والعبادات {يُفَصِّلُ ٱلآيَـٰتِ} أي يذكر هذه الدلائل الباهرة واحداً

عقب آخر مع البيان {لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} الحكمة في إبداع الكائنات فيستدلون بذلك على شؤون مبدعها من الوحدانية، وكمال القدرة والعلم وفي قوله تعالى: {يُفَصّلُ} قراءتان: قراءة ابن كثير، وأبو عمر وحفص عن عاصم بالياء. والباقون بالنون. {إِنَّ فِى ٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ} أي في تعاقبهما أو في تفاوتهما بازدياد وانتقاص، أو في تفاوتهما بحسب الأمكنة في الطول والقصر {وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوٰتِ وَٱلأَرْضِ} من أنواع الموجودات {لآيَٰتٍ} دالة على وجود الصانع ووحدته وكمال علمه وقدرته {لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ} وخصَّ الله تعالى العلامات بالمتقين لأن الداعي إلى التدبير والنظر إنما هو تقوى الله تعالى والحذر من العاقبة {إِنَّ ٱلَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَآءَنَا} أي لا يطمعون في ثوابنا لأنهم لا يؤمنون بالله واليوم الآخر {وَرَضُواْ بِٱلْحَيٰوةِ ٱلدُّنْيَا} أي استغرقوا في طلب اللذات الجسمانية {وَ ٱطْمَأَنُّواْ بِهَا} أي سكنوا في الاشتغال بطلب لذات الدنيا {وَ ٱلَّذِينَ هُمْ عَنْ ءَايَٰتِنَا} أي دلائل وحدانيتنا الظاهرة في الأكوان {غَٰفِلُونَ} أي لا يتفكرون فيها أصلاً {أُوْلَٰئِكَ} أي الموصوفون بتلك الصفات {مَأْوَاهُمُ ٱلنَّارُ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ} أي من الأعمال القلبية ومن أنواع المعاصي والسيئات {إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ} أي شغلوا قلوبهم وأرواحهم بتحصيل المعرفة {وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَاتِ} أي شغلوا جوارحهم بالخدمة فعينهم مشغولة بالاعتبار وأذنهم مشغولة بسماع كلام الله تعالى ولسانهم مشغول بذكر الله وجوارحهم مشغولة بنور طاعة الله {يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَٰنِهِمْ} أي يهديهم إلى الجنة ثواباً لهم على إيمانهم وأعمالهم الصالحة {تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلأَنْهَٰرُ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ} أي إنهم يكونون جالسين على سرر مرفوعة في البساتين والأنهار تجري من بين أيديهم.

{دَعْوَٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ} أي اشتغال أهل الجنة بتقديس الله تعالى وتمجيده والثناء عليه لأجل أن سعادتهم في هذا الذكر {وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ} أي تحية بعضهم لبعض تكون بالسلام وتحية الملائكة لهم بالسلام {وَءَاخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ للَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ} أي إن أهل الجنة لما عاينوا ما هم فيه من السلامة عن الآفات والمخافات علموا أن كل هذه الأحوال السنية إنما كانت بإحسان الله تعالى عليهم، فاشتغلوا بالثناء على الله فقالوا: الحمد لله رب العالمين. وإنما وقع الختم على الحمد لأن الاشتغال بشكر النعمة متأخر عن رؤية تلك النعمة، والمعنى أنهم إذا دخلوا الجنة وعاينوا عظمة الله ووجدوا فيها النعم العظيمة وعرفوا أنه تعالى كان صادقاً في وعده إياهم بتلك النعم مجدوه تعالى ونعتوه بنعوت الجلال فقالوا: سبحانك اللهم، أي نسبحك عن الخلف في الوعد

والكذب في القول وعمّا لا يليق بحضرتك العلية، ولما حياهم الله والملائكة بالسلامة عن الآفات وبالفوز بأنواع الكرامات أثنوا عليه تعالى بصفات الإكرام. {وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ} أي ولو يعجل الله لهم العذاب عند استعجالهم به تعجيلاً مثل تعجيله لهم كشف الشدائد عند استعجالهم به لأميتوا وأهلكوا بالمرة وما أمهلوا طرفة عين.

وقرأ ابن عامر «لقضى» بفتح القاف والضاد، و«أجلهم» بالنصب. وقرأ عبد الله، «لقضينا إليهم أجلهم». {فَنَذَرُ ٱلَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَآءَنَا فِى طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ} أي فنترك الذين لا يؤمنون بالبعث والجزاء مع تمردهم في ضلالتهم يتحيرون في شأنهم {وَإِذَا مَسَّ ٱلإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ} وهذه الآية بيان أن الإنسان قليل الصبر عند نزول البلاء، قليل الشكر عند وجدان النعماء فإذا مسه الضر أقبل على التضرع والدعاء مضطجعاً أو قاعداً أو قائماً، مجتهداً في ذلك الدعاء طالباً من الله تعالى إزالة تلك المحنة، وتبديلها بالمنحة فإذا كشف الله تعالى عنه بالعافية أعرض عن الشكر ولم يتذكر ذلك الضر ولم يعرف قدر الإنعام، وصار بمنزلة من لم يدع الله تعالى لكشف ضره. فالواجب على العاقل أن يكون صابراً عند نزول البلاء شاكراً عند الفوز بالنعماء، وأن يكون كثير الدعاء والتضرع في أوقات الراحة والرفاهية حتى يكون مجاب الدعوة في وقت المحنة. وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «من سره أن يستجاب له عند الكرب والشدائد فليكثر الدعاء عند الرخاء». {كَذٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} أي هكذا زين لمن بذل العقل والفهم والحواس لأجل لذات الدنيا، وهي خسيسة جداً في مقابلة سعادات الدار الآخرة ما كانوا يعملون من الإعراض عن الذكر، والدعاء والانهماك في الشهوات، والكاف مقحمة للدلالة على زيادة فخامة المشار إليه.

{وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ} أي الأمم {مِن قَبْلِكُمْ} أي من قبل زمانكم يا أهل مكة مثل قوم نوح وعاد وأشباههم {لَمَّا ظَلَمُواْ} أي حين فعلوا الظلم بالتكذيب {وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنٰتِ} أي بالمعجزات الدالة على صدقهم {وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ} أي وقد علم الله منهم أنهم يصرون على الكفر {كَذٰلِكَ} أي مثل الإهلاك الشديد الذي هو الاستئصال بالمرة {نَجْزِي ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ} أي نجزي كل طائفة مجرمين لاشتراكهم لأولئك المهلكين في الجرائم التي هي تكذيب الرسول {ثُمَّ جَعَلْنٰكُمْ} يا أهل مكة {خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلأَرْضِ مِن بَعْدِهِم} أي من بعد إهلاك أولئك القرون {لِنَنظُرَ كَيْفَ

تَعْمَلُونَ} أي لنعاملكم معاملة من يطلب العلم بما يكون منكم من خير أو شر فنجازيكم على حسب عملكم {وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ} أي أهل مكة الوليد بن المخزومي، والعاص بن وائل السهمي، والأسود بن المطلب، والأسود بن عبد يغوث، والحارث بن الحنظلة، {ءَايَٰتُنَا} الدالة على بطلان الشرك {بَيِّنَاتٍ} أي ظاهرة في دلالتها على وحدانيتنا وصحة نبوة محمد صلى الله عليه وسلم {قَالَ ٱلَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَآءَنَا} أي لا يرجون في لقائنا خيراً على طاعة لأنهم لا يؤمنون بالبعث بعد الموت {ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ} أي بكتاب آخر على غير ترتيب هذا الكتاب {أَوْ بَدِّلْهُ} بأن تجعل مكان آية العذاب آية رحمة ومكان الحرام حلالاً، ومكان الذم مدحاً وإنما قالوا ذلك على سبيل السخرية كقولهم: لو جئتنا بقرآن آخر أو بدلت هذا القرآن لآمنا بك أو على سبيل التجربة حتى إنه صلى الله عليه وسلم لو فعل ذلك علموا أنه كذاب في قوله: إن هذا القرآن ينزل عليه من عند الله {قُلْ} لهم: {مَا يَكُونُ لِيۤ أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَآءِ نَفْسِيۤ} أي ما يستقيم لي أن أغيره من قبل نفسي {إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ} أي ما أتبع في شيء مما أفعل وأترك إلا ما يوحى إليَّ في القرآن من غير تغيير له في شيء أصلاً {إِنِّيۤ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى} بالإعراض عن اتباع الوحي {عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ} وهو يوم القيامة {قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلاَ أَدْرَاكُمْ بِهِ} أي قل يا أشرف الخلق للذين طلبوا منك تغيير القرآن: لو شاء الله عدم تلاوتي للقرآن عليكم بأن لم ينزله عليّ ولم يأمرني بتلاوته ما تلوته عليكم وما أعلمكم به بواسطتي. وقرأ الحسن «ولا أدرؤكم به» أي ولا أجعلكم بتلاوته عليكم خصماً تدرأونني بالجدال وتكذبونني. وقرأ ابن عباس «ولا أنذرتكم به». وعن ابن كثير و«لأدراكم» بلام التأكيد التي تقع في جواب لو، أي ولأعلمكم به على لسان غيري فإنه حق لا محيص عنه ولو لم يرسلني الله به لأرسل غيري به {فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً} أي فقد مكثت فيما بينكم مقدار أربعين سنة تحفظون أحوالي طراً {مِّن قَبْلِهِ} أي قبل أن يوحى إليَّ هذا القرآن لم آتكم بشيء {أَفَلاَ تَعْقِلُونَ} أي ألا تدبرون فلا تعقلون أن القرآن ليس من تلقاء نفسي، ووجه هذا الاحتجاج أن أولئك الكفار كانوا قد شاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم من أول عمره إلى ذلك الوقت وعلموا أحواله وأنه كان أمياً لم يطالع كتاباً ولم يتلمذ لأستاذ، ثم بعد أربعين سنة جاءهم بهذا الكتاب المشتمل على نفائس العلوم وأخبار الماضين وفيه من الأحكام والأدب والفصاحة ما أعجز العلماء والفصحاء عن معارضته وكل من له عقل سليم يعلم أن هذا القرآن لا يحصل إلا

بالوحي من الله تعالى {فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَٰتِهِ} أي إني لم أفتر على الله كذباً ولم أكذب عليه في قولي إن هذا القرآن من عند الله ولو لم يكن من عند الله بحيث افتريته على الله لما كان في الدنيا أحد أظلم على نفسه مني فإذا أنكرتم ذلك فقد كذبتم بآيات الله فثبت كونكم أظلم الناس على أنفسكم {إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ ٱلْمُجْرِمُونَ} أي لا ينجو من عذاب الله المشركون {وَيَعْبُدُونَ} أي هؤلاء المشركون {مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ} في الدنيا والآخرة {وَلاَ يَنفَعُهُمْ} فيهما وهو الأصنام كان أهل الطائف يعبدون اللات وأهل مكة يعبدون عزى ومناة وهبل وإساف ونائلة {وَيَقُولُونَ هَٰؤُلاۤءِ} الأوثان {شُفَعَٰؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ} أي فإنهم يزعمون أنهم تشفع لهم في الدنيا في إصلاح معايشهم لأنهم كانوا لا يعتقدون بعثاً بعد الموت أو تشفع لهم في الآخرة أن يبعثوا لأنهم كانوا شاكين في البعث {قُلْ} تبكيتاً لهم: {أَتُنَبِّئُونَ ٱللَّهَ بِمَا لاَ يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوٰتِ وَلاَ فِى ٱلأَرْضِ} أي أتخبرون الله بالذي لم يعلمه الله وهو شفاعة الأصنام وإذا لم يعلم الله شيئاً استحال وجود ذلك الشيء لأنه تعالى لا يعزب عن علمه شيء {سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ} أي عن شركائهم الذين يعتقدونهم شفعاء لهم عند الله.

وقرأ حمزة والكسائي «تشركون» بالتاء على الخطاب {وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً} أي كانوا على دين الإسلام من لدن آدم إلى أن قتل قابيل هابيل {فَٱخْتَلَفُواْ} بأن كفر بعضهم وثبت آخرون على دين الإسلام {وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ} أي لولا أنه تعالى أخبر بأنه يبقى التكليف على عباده وإن كانوا كافرين {لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ} بتعجيل الحساب والعقاب لكفرهم، ولما كان ذلك سبباً لزوال التكليف وكان إبقاؤه أصلح أخر الله العقاب إلى الآخرة {فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} أي في الدين الذي اختلفوا بسببه.

{وَيَقُولُونَ} أي كفار مكة {لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ} أي هلا أنزل الله على محمد عليه السلام {ءَايَةٌ} أخرى سوى القرآن {مِّن رَّبِّهِ} دالة على صدق ما يقول كما كان لصالح من الناقة، ولموسى من العصا {فَقُلْ} لهم في الجواب: {إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ للَّهِ} أي إن ما اقترحتموه وزعمتم أنه من لوازم النبوة، وعلقتم إيمانكم بنزوله هو من الغيوب المختصة بالله تعالى لا علم لي به {فَٱنتَظِرُوۤاْ} نزوله {إِنِّى مَعَكُمْ مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ} لما يفعل الله بكم لاجترائكم على جحود الآيات القرآنية واقتراح غيرها. {وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّن بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَّكْرٌ فِىۤ ءايَٰتِنَا} أي إن مشركي أهل مكة عادتهم اللجاج والعناد لأنه تعالى سلط عليهم القحط سبع سنين

حتى كادوا يهلكون، فأنزل الله الأمطار النافعة على أراضيهم حتى أخصبت البلاد وعاش الناس بعد ذلك، ثم إنهم أضافوا تلك المنافع الجليلة إلى الأنواء والكواكب أو الأصنام، وإذا كان كذلك فبتقدير أن يعطوا ما سألوا من إنزال ما اقترحوه فإنهم لا يؤمنون بل يبقون على كفرهم {قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا} أي إن هؤلاء الكفار لما قابلوا نعمة الله بالمكر فالله تعالى قابل مكرهم بمكر أشد من ذلك، وهو إهلاكهم يوم بدر، وحصول الفضيحة، والخزي في الدنيا، وعذاب شديد يوم القيامة. ومعنى الوصف بالأسرعية أنه تعالى قضى بعقابهم قبل تدبيرهم مكايدهم، والمكر من الله تعالى إما الاستدراج أو الجزاء على المكر أي إخفاء الكيد {إِنَّ رُسُلَنَا} الذين يحفظون أعمالكم {يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ} أي مكركم. ويعرض عليكم ما في بواطنكم الخبيثة يوم القيامة {هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ} مشاة وركباناً {وَ ٱلْبَحْرِ}.

وقرأ ابن عامر «ينشركم» بنون ساكنة فشين معجمة مضمومة أي يبسطكم {حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ} أي السفن {وَجَرَيْنَ} أي السفن {بِهِم} أي بالذين فيها {بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ} موافقة للمقصود {وَفَرِحُواْ بِهَا} أي بتلك الريح فرحاً تاماً {جَآءَتْهَا} أي تلقت تلك الريح الطيبة {رِيحٌ عَاصِفٌ} أي شديد أزعجت سفينتهم {وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ} العظيم الذي أرجف قلوبهم {مِن كُلِّ مَكَانٍ} أي ناحية {وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ} أي ظنوا القرب من الهلاك {دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ} أي من غير أن يشركوا معه تعالى شيئاً من آلهتهم، أي وهم مقرون بوحدانية الله وربوبيته لأجل علمهم بأنه لا ينجيهم من ذلك إلا الله تعالى فيكون إيمانهم جارياً مجرى الإيمان الاضطراري قائلين: والله {لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ} الشدائد {لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ} لنعمك {فَلَمَّآ أَنجَاهُمْ} من هذه البلية العظيمة {إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ} أي يترقون في الفساد والجراءة على الله تعالى بالكفر والمعاصي {يَٰأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ مَّتَاعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا}.

قرأ الأكثرون: «متاع» بالرفع «فبغيكم» مبتدأ و«متاع» خبره، أو «على أنفسكم» خبره، و«متاع» خبر محذوف، أي إن ظلم بعضكم على بعض منفعة الحياة الدنيا وهي مدة حياتكم لا بقاء لها، أو أن الظلم لبعضكم كائن عليكم في الحقيقة لا على الذين تظلمون عليهم وهو منفعة سريعة الزوال. وقرأ حفص عن عاصم بنصب متاع على أنه مصدر مؤكد لفعل مقدر، أي تتمتعون متاع أو مصدر وقع موقع الحال أي متمتعين بالحياة الدينا {ثُمَّ إِلَينَا مَرْجِعُكُمْ} بعد الموت {فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} في الدنيا من

البغي أي قصد الاستعلاء بالظلم فنجازيكم على أعمالكم {إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ ٱلأَرْضِ} أي لأنه إذا نزل المطر يثبت بسببه أنواع كثيرة من النبات وتكونَ تلك الأنواع مختلطة {مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلأَنْعَٰمُ} من البقول والزروع والحشيش {حَتَّىٰ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلأَرْضُ زُخْرُفَهَا} أي حتى إذا جعلت الأرض آخذة لباسها من كل نبات {وَٱزَّيَّنَتْ} بجميع الألوان الممكنة في الزينة من حمرة وخضرة وصفرة وذهبية وبياض {وَظَنَّ أَهْلُهَآ} أي أهل النبات الموجودة في الأرض {أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَآ} أي على تحصيل ثماره وعلى حصاده {أَتَاهَآ} أي نبات الأرض {أَمْرُنَا} بهلاكنا بنار أو برد أو ريح {لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا} أي نبات الأرض {حَصِيدًا} أي شبيهاً بالمقلوع فلا شيء على الأرض {كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلأَمْسِ} أي كأن تلك النباتات لم تكن قائمة على ظهر الأرض في الزمن الماضي.

والمعنى أن هذه الحياة الدنيا التي ينتفع بها المرء مثل النبات الذي لما عظم الرجاء في الانتفاع به وقع اليأس منه بالهلاك، والمتمسك بالدنيا إذا نال منها بغيته أتاه الموت بغتة فسلبه ما هو فيه من نعيم الدنيا ولذتها. {كَذَٰلِكَ} أي مثل ذلك التفصيل {نُفَصِّلُ ٱلآيَٰتِ} أي نبين الآيات القرآنية في فناء الدنيا {لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} ويقفون على معانيها {وَٱللَّهُ يَدْعُوۤاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلاَمِ}.

روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «مثلي ومثلكم شبه سيد بنى داراً ووضع مائدة وأرسل داعياً، فمن أجاب الداعي دخل الدار وأكل من المائدة ورضي عنه السيد، ومن لم يجب لم يدخل ولم يأكل ولم يرض عنه السيد». فالله السيد والدارين الإسلام، والمائدة الجنة، والداعي محمد صلى الله عليه وسلم. وعن النّبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ما من يوم تطلع فيه الشمس إلا وبجنبيها ملكان يناديان بحيث يسمع كل الخلائق إلا الثقلين أيها الناس هلموا إلى ربكم والله يدعو إلى دار السلام». {وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} أي إجابة تلك الدعوة {لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ} أي أتوا بالمأمور به واجتنبوا المنهيات { ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ} أي نضرة الوجوه ورؤية الله تعالى. وعن ابن عباس: أن الحسنى هي الحسنة والزيادة عشر أمثالها. وعن علي: الزيادة غرفة من لؤلؤة واحدة {وَلاَ يَرْهَقُ} أي لا يعلو {وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ} أي سواد {وَلاَ ذِلَّةٌ} أي أثر هوان {أُوْلَٰئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ} أي دائمون بلا انتقال {وَٱلَّذِينَ كَسَبُواْ ٱلسَّيِّئَاتِ} أي الكفر والمعاصي {جَزَآءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا} من غير زيادة بعدل الله تعالى {وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ} أي ويعلو أنفسهم ذلة عظيمة {مَّا لَهُمْ مِّنَ

ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ} أي ما لهم عاصم من عذاب الله {كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مُظْلِماً} أي كأن الوجوه ألبست سواداً من الليل لفرط سوادها {أُوْلَئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَوَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا} أي نحشر الكل حال اجتماعهم لايتخلف منهم أحد وهو يوم القيامة {ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُواْ} أي نقول للمشركين من بينهم: {مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ} أي الزموا أنتم ومن عبدتموه من دون الله مكانكم حتى تسألوا وتنظروا ما يفعل بكم {فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ} أي فباعدنا بين المشركين ومعبوداتهم بعد الجمع في الموقف، وتبرأ شركاؤهم منهم ومن عبادتهم {وَقَالَ شُرَكَآؤُهُمْ} لهؤلاء المشركين {مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ} بأمرنا وإرادتنا إنما كنتم تعبدون أهواءكم وشياطينكم الذين أغووكم فإنها الآمرة لكم بالإشراك {فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ} أي إنا كنا عن عبادتكم لجاهلين لا نعلمها ولا نرضى بها.

{هُنَالِكَ} أي في ذلك المقام أو في ذلك الوقت {تَبْلُواْ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ} بالتاء، فالباء على القراءة المشهورة أي تذوق كل نفس سعيدة أو شقية ما قدمت من عمل فتعلم نفعه وضره.

وقرأ حمزة والكسائي «تتلو» بتاءين أي تقرأ كل نفس في صحيفة أعمالها ما قدمت من خير أو شر أو تتبع ما أسلفت، لأن عملها هو الذي يهديها إلى طريق الجنة أو إلى طريق النار.

وقرأ عاصم «نبلو كل نفس» بالنون والباء ونصب «كل»، أي نختبر كل نفس بسبب اختبار ما أسلفت من العمل، أي نفعل بها فعل المختبر، أو المعنى نصيب بالبلاء الذي هو العذاب كل نفس عاصية بسبب ما أسلفت من الشر {وَرُدُّواْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَٰهُمُ ٱلْحَقِّ} أي أعرض الذين أشركوا عن المولى الباطل ورجعوا إلى المولى الحق وأقروا بألوهيته بعد أن كانوا في الدنيا يعبدون غيره، وردوا إلى حكمه {وَضَلَّ عَنْهُمْ} أي ضاع عنهم في الموقف {مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ} أي يدعون أن مبعوداتهم آلهة وأنها تشفع لهم {قُلْ} لأولئك المشركين: {مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلأَرْضِ} أي رزقاً مبتدأ منهما {أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلأَبْصَٰرَ} أي بل من يستطيع خلق الأسماع والأبصار ومن يحفظهما من الآفات.

وعن علي رضي الله تعالى عنه كان يقول: سبحان من بصر بشحم، وأسمع بعظم، وأنطق بلحم {وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ} أي ومن يقدر أن يخرج الإنسان من النطفة، والطائر من البيضة، وأن يخرج النطفة من الإنسان، والبيضة من الطائر {وَمَن يُدَبِّرُ ٱلأَمْرَ} أي من يدبر أحوال العالم

جميعاً {فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ} أي إن الرسول إذا سألهم عن مدبر هذه الأحوال كانوا يعرفون الله وهم الذين قالوا في عبادتهم للأصنام: إنها تقربنا إلى الله وإنها تشفع عند الله وكانوا يعلمون أنها لا تنفع ولاتضر، فعند ذلك قال الله تعالى لرسوله {فَقُلْ} عند ذلك تبكيتاً لهم {أَفَلاَ تَتَّقُونَ} أي أتعلمون ذلك فلا تتقون أن تجعلوا هذه الأوثان شركاء لله في العبودية مع اعترافكم بأن كل الخيرات في الدنيا والآخرة إنما تحصل من رحمة الله وبأن هذه الأوثان لا تنفع ولا تضر ألبتة {فَذَلِكُمُ ٱللَّهُ} أي فمن هذه قدرته ورحمته هو الله {رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ} أي الثابت ربوبيته ثباتاً لا ريب فيه {فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلاَّ ٱلضَّلاَلُ} أي ليس غير الحق إلا الضلال أي فإذا ثبت أن عبادة الله حق ثبت أن عبادة غيره من الأصنام ضلال محض إذ لا واسطة بينهما {فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ} أي فكيف تمالون من التوحيد إلى الإشراك وعبادة الأصنام {كَذَلِكَ} أي مثل صرفهم عن الحق بعد الإقرار به {حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ} أي حكمه {عَلَى ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ} أي خرجوا عن حد الصلاح {أَنَّهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ} بدل من كلمة بدل كل من كل {قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُمْ} أي هل من الأصنام التي أثبتم شركتها لله في استحقاق العبادة {مَّن يَبْدَأُ ٱلْخَلْقَ} أي ينشىء المخلوقات من العدم {ثُمَّ يُعِيدُهُ} في القيامة للجزاء ولما لم يقدروا على الجواب أمر الله رسوله أن ينوب عنهم في الجواب فقال {قُلِ ٱللَّهُ يَبْدَأُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ} أي فكيف تقبلون من الحق إلى الباطل {قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُمْ مَّن يَهْدِيۤ إِلَى ٱلْحَقِّ} أي إلى ما فيه صلاح أمركم فإن أدنى مراتب المعبودية هداية المعبود لعابديه إلى ذلك {قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ} دون غيره وذلك بنصب الأدلة وإرسال الرسال وإنزال الكتب وبالتوفيق للنظر {أَفَمَن يَهْدِيۤ إِلَى ٱلْحَقِّ} وهو الله تعالى {أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ} أي حقيق أن يطاع ويعبد {أَمَّن لاَّ يَهِدِّيۤ إِلاَّ أَن يُهْدَىٰ} أي أم من لا ينتقل إلى مكان إلا أن ينقل إليه لأن الأصنام خالية عن الحياة والقدرة، أو المعنى أم من لا يهتدي في حال من الأحوال إلا في حال هدايته تعالى له وهذا حال أشراف شركائهم من الملائكة والمسيح وعزير عليهم السلام. وقرأ ابن كثير وابن عامر وورش عن نافع «أم من لا يهدي» بفتح الياء والهاء وتشديد الدال. وقرأ عاصم وحفص بفتح الياء وكسر الهاء وتشديد الدال. وقرأ حماد ويحيى بن آدم عن أبي بكر عن عاصم بكسر الياء والهاء. وقرأ حمزة والكسائي «يهدي» ساكنة الهاء. {فَمَا لَكُمْ} أي أيّ شيء ثبت لكم في اتخاذكم هؤلاء شركاء لله تعالى فإنهم عاجزون عن هداية أنفسهم فكيف يمكن أن يهدوا غيرهم {كَيْفَ تَحْكُمُونَ} أي كيف تحكمون بالباطل

وتجعلون لله شركاء {وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلاَّ ظَنًّا} أي ما يتبع أكثرهم في معتقداتهم إلا ظناً واهياً أما بعضهم فقد يتبعون العلم فيقفون على بطلان الشرك لكن لا يقبلون العلم عناداً، وفي ذلك دليل على أن تحصيل العلم في الأصول واجب، والاكتفاء بالتقليد والظن غير جائز {إَنَّ ٱلظَّنَّ لاَ يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ} أي عن العلم {شَيْئًا} من الإغناء في العقائد {إِنَّ ٱللَّهَ عَلَيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ} من الاتباع للظنون الفاسدة والإعراض عن البراهين القاطعة.

{وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ} أي وما صح أن يكون هذا القرآن المشحون بفنون الحجج الناطقة ببطلان الشرك وحقية التوحيد مفترى من الخلق {وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ} أي ولكن القرآن تصديق الذي قبله من الكتب الإلهية المنزلة على الأنبياء قبله {وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَابِ} أي وتفصيل جميع العلوم العقلي والنقلي الذي يمتنع حصوله في سائر الكتب {لاَ رَيْبَ فِيهِ} أي منتفياً عنه الريب {مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ} أي كائناً من رب العالمين {أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَاهُ} أي أيقرون بالقرآن بل يقول كفار مكة اختلق محمد صلى الله عليه وسلم القرآن من تلقاء نفسه {قُلْ} لهم إظهاراً لبطلان مقالتهم الفاسدة {فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ} أي إن كان الأمر كما تقولون فأتوا بسورة مثل القرآن في الفصاحة وحسن الصياغة، وقوة المعنى على وجه الافتراء فإنكم مثلي في العربية والفصاحة، وأشد تمرناً مني في النظم والعبارة {وَٱدْعُواْ} للمعاونة {مَنِ ٱسْتَطَعْتُمْ} دعاءه {مِّن دُونِ ٱللَّهِ} أي من سائر خلق الله {إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ} في أني افتريته {بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ} أي بل كذبوا بما لم يدرك علمهم به مسرعين في ذلك من غير أن يتدبروا فيه ولم يبلغ أذهانهم معانيه الرائقة المنبئة عن علو شأنه {كَذَٰلِكَ} أي مثل ذلك التكذيب من غير تدبر {كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ} ما كذبوا من المعجزات التي ظهرت على أيدي أنبيائهم {فَٱنظُرْ} يا أشرف الخلق {كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ} فإنهم طلبوا الدنيا وتركوا الآخرة فلما ماتوا فاتتهم الدنيا والآخرة فبقوا في الخسار العظيم {وَمِنهُمْ} أي ومن هؤلاء المكذبين {مَّن يُؤْمِنُ بِهِ} أي القرآن عند الإحاطة بعلمه أي إما يعتقد بحقية القرآن فقط بأن يصدق به في نفسه ويعلم أنه حق ولكن يعاند، وإما سيؤمن به ويتوب عن الكفر {وَمِنْهُمْ مَّن لاَّ يُؤْمِنُ بِهِ} أي بأن لا يصدق به في نفسه لفرط غباوته أو لسخافة عقله وعجزه عن تخليص علوم عن مخالطة الظنون أو بأن يموت على كفره وهم المستمرون على اتباع الظن من غير انقياد للحق {وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِٱلْمُفْسِدِينَ} أي بالمصرين على

الكفر من المعاندين والشاكين {وَإِن كَذَّبُوكَ} أي أصروا على تكذيبك بعد إلزام الحجة بالتحدي {فَقُل} لهم: {لِّى عَمَلِى} من الإيمان وجزاء ثوابه {وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ} من الشرك وجزاء عقابه {أَنتُمْ بَرِيۤئُونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَاْ بَرِيۤءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ} أي لا تؤاخذون بعملي ولا أؤاخذ بعلمكم {وَمِنْهُمْ} أي من هؤلاء المشركين {مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ} عند قراءتك القرآن وتعليمك الشرائع {أَفَأَنتَ تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ} أي أأنت تقدر على إسماع الصم {وَلَوْ كَانُواْ لاَ يَعْقِلُونَ} أي ولو انضم إلى صممهم عدم عقلهم {وَمِنهُمْ مَّن يَنظُرُ إِلَيْكَ} أي من يعاين دلائل صدقك {أَفَأَنْتَ تَهْدِى ٱلْعُمْىَ} أي أعقب ذلك أنت تهديهم {وَلَوْ كَانُواْ لاَ يُبْصِرُونَ} أي لا يستبصرون بقلوبهم ولا يعتبرون {إِنَّ ٱللَّهَ لاَ يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْئًا} أي بسبب حواسهم وعقولهم {وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} بإفساد الحواس والعقول وتفويت منافعها عليها فإن الفعل منسوب إليهم بسبب الكسب، وإن كان قد سبق قضاء الله وقدره فيهم وتقدير الشقاوة عليهم لا يكون ظلماً منه تعالى لأنه يتصرف في ملكه كيف يشاء والخلق كلهم عبيده وكل من تصرف في ملكه لا يكون ظالماً {وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَثُوۤاْ إِلاَّ سَاعَةً مِّنَ ٱلنَّهَارِ} أي وأنذر المشركين المنكرين للعبث يوم يحشرهم في الموقف مشبهين من لم يلبث في الدنيا ولم يتقلب في نعيمها إلا مقدار ساعة من النهار فإن عاقبة الكافر خالصة مقرونة بالإهانة، ولذات الدنيا مع خساستها لم تكن خالصة بل كانت مخلوطة بالهمومات الكثيرة، وكانت تلك اللذات مغلوبة بالمؤلمات والآفات وكانت لم تحصل إلا في بعض الأوقات، أما آلام الآخرة فهي سرمدية لا تنقطع ألبتة ونسبة عمر جميع الدنيا إلى الآخرة الأبدية أقل من الجزء الذي لا يتجزأ بالنسبة إلى ألف ألف عالم مثل العالم الموجود، فمتى قوبلت الخيرات الحاصلة بسبب الحياة العاجلة بالآفات الحاصلة للكافر وجدت أقل من اللذة بالنسبة إلى جميع العالم {يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ} أي يوبخ بعضهم بعضاً فيقول كل فريق للآخر: أنت أضللتني يوم كذا وزينت لي الفعل الفلاني من القبائح {قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ} أي قد هلكوا بتكذيبهم بالبعث بعد الموت، وضلوا وما كانوا عارفين لطريق النجاة وهذه شهادة من الله تعالى على خسرانهم.

{وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ} أي وإن أريناك بعض العذاب الذي نعدهم به بأن نعجله لهم في حياتك في الدنيا فتراه، وإن توفيناك قبل نزول العذاب بهم فإنك ستراه في الآخرة لأن العذاب لا يفوتهم بل ننزله بهم في الآخرة {ثُمَّ ٱللَّهُ

شَـهِيدٌ عَلَىٰ مَـا يَفْعَلُـونَ} أي ثـم اللـه معـاقب علـى مـا يفعلـونه. وقرىء ثمة أي هناك {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ} مـن الأمـم الماضـية {رَّسُـولٌ} يبعث إليهم بشريعة خاصة مناسبة لأحـوالهم ليـدعوهم إلـى الحـق {فَـإِذَا جَـآءَ رَسُـولُهُمْ} فبلغهـم مـا أرسـل إليهـم، فكـذبه بعضـهم وصدقه بعضهم {قُضِىَ بَيْنَهُمْ بِ لْقِسْطِ} أي بالعدل، أي فصل بينهم وحكـم بهلاك المكـذبين وبنجـاة الرسـول ومـن صـدقه {وَهُـمْ لاَ يُظْلَمُونَ} في ذلك القضاء بتعذيبهم لأنه بجرمهـم {وَيَقُولُـونَ} أي قال: كل أهل دين لرسولهم على وجه التكذيب للرسول الله صـلى الله عليه وسلم فيما أخبرهم من نزول العذاب للأعداء {مَتَـىٰ هَـذَا لْوَعْدُ} الذي تعدنا بنزول العذاب {إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ} في أنه يأتينـا {قُل} يا أشرف الخلق لقومك الذين استعجلوا نزول العذاب علـى طريقة الاستهزاء به والإنكار {لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا} أي لا أقدر على دفع ضر ولا جلـب نفـع لنفسـي {إِلاَّ مَـا شَـآءَ ٱللَّـهُ} أي ولكن ما شاء الله من ذلك كائن {لِكُلِّ أُمَّـةٍ أَجَـلٌ} أي وقـت معيـن خاص بهم {إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ} أي وقت هلاكهم {فَلاَ يَسْتَأْخِرُونَ} عن ذلك الأجل {سَاعَةً} أي شيئاً قليلاً من الزمـان {وَلاَ يَسْـتَقْدِمُونَ} عليه {بِمُعْجِزِينَ} أي قل للذين يستعجلون العـذاب أخـبروني عـن عـذاب اللـه إن أتـاكم وقـت اشـتغالكم بـالنوم أو عنـد اشـتغالكم بمشاغلكم أي شيء تستعجلون من عذاب اللـه وليـس شـيء مـن العذاب يستعجله عاقـل إذ العـذاب كل ه مـر المـذاق مـوجب لنفـار الطبع منه {أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنْتُمْ بِهِ} أي أبعد ما وقع العذاب بكـم حقيقة آمنتم به حيـن لا ينفعكـم الإيمـان {ءَآٱنَ} تؤمنـون بالعـذاب {وَقَـدْ كُنتُـم بِـهِ} أي بالعـذاب {تَسْـتَعْجِلُونَ} أي تكـذبون فـإن استعجالهم كان على جهة التكذيب والإنكار {ثُمَّ قِيلَ} يوم القيامـة علـى لسـان ملائكـة العـذاب {لِلَّـذِينَ ظَلَمُـواْ} أي وضـعوا الكفـر والتكـذيب موضـع الإيمـان والتصـديق {ذُوقُـواْ عَـذَابَ لْخُلْـدِ} أي العذاب المؤلم على الدوام {هَلْ تُجْزَوْنَ} في الآخرة {إِلاَّ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ} في الدنيا من أصناف الكفـر والمعاصـي، وهـذا اسـتثناء مفرغ والجار والمجرور مفعول ثانٍ «لتجزون» والأول قـائم مقـام الفعل.

تنبيه: أين ما ذكر الله تعالى العذاب ذكر هذه العلة كأن سائلاً يقول: يا رب العزة أنت الغني عن الكل فكيف يليـق برحمتـك هـذا التشديد؟ فهو تعالى يقول: ما أنا عاملته بهذه المعاملـة ابتـداء بـل هذا وصل إليه جزاء على عمله الباطل.

{وَيَسْتَنْبِئُونَكَ} أي يستخبرونك يا أشرف الخلق والقائل حيي بن أخطب لما قدم مكة بطريق الاستهزاء والإنكار: {أَحَقٌّ هُوَ} أي

ما تعدنا من نزول العذاب علينا في الدنيا، وما تعدنا من البعث والقيامة. {قُلْ} لهم في الجواب هذه الأمور الثلاثة غير ملتفت إلى استهزائهم: {إِى وَرَبِّى} ف«إي» من حروف الجواب بمعنى «نعم» في القسم خاصة كما أن «هل» بمعنى «قد» في الاستفهام خاصة. {إِنَّهُ} أي العذاب الموعود {لَحَقٌّ} أي لثابت {وَمَآ أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ} لمن وعدكم بالعذاب أن ينزله عليكم {وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ} وهو لا حق بكم بالشرك أو غيره من أنواع الظلم ولو مرة {مَا فِى ٱلأَرْضِ} أي ما في الدنيا من الأموال {لاَفْتَدَتْ بِهِ} أي لفادت بما في الدنيا نفسها من عذاب الله {وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ} أي أخفوا الندامة على ترك الإيمان حين عاينوا العذاب فلم يقدروا على أن ينطقوا بشيء لشدة الأهوال وفظاعة الحال {وَقُضِىَ بَيْنَهُمْ} أي بين الظالمين بالشرك وغيره {بِٱلْقِسْطِ} أي بالعدل {وَهُمْ} أي الظالمون {لاَ يُظْلَمُونَ} فيما فعل بهم من العذاب {أَلاَ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلأَرْضِ} أي ما وجد فيهما {أَلاَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ} أي إن جميع ما وعد الله به ثابت لا بد أن يقع، ووعده تعالى مطابق للواقع {وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ} أي غافلون عن هذه الدلائل {هُوَ يُحْىِ وَيُمِيتُ} في الدنيا {وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} بعد الموت للجزاء.

{يٰأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُمْ مَّوْعِظَةٌ مَّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ} أي قد جاءكم كتاب فيه بيان ما ينفع المكلف وما يضره ودواء للقلوب وهدي إلى الحق ورحمة للمؤمنين بإنجائهم من الضلال إلى نور الإيمان وتخلصهم من دركات النيران إلى درجات الجنان. والحاصل أن الموعظة إشارة إلى تطهير الظاهر عمّا لا ينبغي وهو الشريعة، والشفاء إشارة إلى تطهير الباطن عن العقائد الفاسدة، والأخلاق الذميمة وهو الطريقة، والهدي إشارة إلى ظهور نور الحق في قلوب الصديقين وهو الحقيقة والرحمة إشارة إلى بلوغ الكمال {قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ} أي فليفرحوا بتلك النعم لا من حيث هي بل من حيث إنها بفضل الله وبرحمة الله. قال الصديقون: من فرح بنعمة الله من حيث إنها تلك النعمة فهو مشرك، أما من فرح بنعمة الله من حيث إنها من الله كان فرحه بالله وذلك غاية الكمال ونهاية السعادة.

وقال أبو سعيد الخدري: فضل الله القرآن ورحمته أن جعلكم من أهله. {هُوَ} أي المذكور من فضل الله ورحمته {خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ} من الدنيا لأن الآخرة أبقى. وقرأ ابن عامر بالتاء على الخطاب، وأما «فليفرحوا» فبالياء التحتية عند السبعة ولا يقرؤه

بالتاء الفوقية إلا يعقوب من العشرة كما هو مروي عن زيد بن ثابت. والمعنى فبذلك فلتفرحوا يا أصحاب محمد هو خير مما يجمع الكفار {قُلْ أَرَأَيْتُمْ} أي أخبروني {مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ مِّن رِّزْقٍ} أي الذي خلقه الله لكم من حرث وأنعام {فَجَعَلْتُمْ مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلاَلاً} أي فحكمتم بأن بعض الرزق حرام وبعضه حلال مع كون كله حلالاً {قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ} فقل تأكيد الأمر بالاستخبار أي أخبروني ألله أمركم بذلك الحكم فأنتم ممتثلون بأمره تعالى؟ {أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ} أي أم لم يأذن لكم في ذلك بل على الله تكذبون بنسبة ذلك إليه {وَمَا ظَنُّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ يَوْمَ ٱلْقِيٰمَةِ} أي أيّ شيء ظنهم يوم عرض الأفعال والأقوال أيحسبون أنهم لا يسألون عن افترائهم أو لا يجازون عليه ولأجل ذلك يفعلون ما يفعلون كلا إنهم لفي أشد العذاب لأن معصيتهم أشد المعاصي {إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ} بإعطاء العقل وإرسال الرسل وإنزال الكتب، وإمهالهم على سوء أفعالهم {وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَشْكُرُونَ} تلك النعم فلا يستعملون العقل في التأمل في دلائل الله تعالى ولا يقبلون دعوة أنبياء الله تعالى ولا ينتفعون باستماع كتب الله {وَمَا تَكُونُ} يا أشرف الخلق {فِى شَأنٍ} أي أمر من أمور الدنيا {وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ} أي الشأن {مِن قُرْءَانٍ وَلاَ تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ} أي أيّ عمل كان {إِلاَّ كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ} أي تشرعون {فِيهِ} أي في ذلك المذكور {وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلأَرْضِ وَلاَ فِى ٱلسَّمَآءِ} أي ولا يغيب عن علم ربك ما يساوي في الثقل نملة صغيرة أو هباء في دائرة الوجود.

وقرأ الكسائي بكسر الزاي {وَلاَ أَصْغَرَ مِن ذٰلِكَ} أي الذرة {وَلاَ أَكْبَرَ إِلاَّ فِى كِتَابٍ مُّبِينٍ} أي في لوح محفوظ. وقرأ حمزة بالرفع على الابتداء والخبر. والباقون بالنصب على أن لا نافية للجنس وما بعدها اسمها وخبرها {أَلاَ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ} في الدارين من لحوق مكروه {وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ} من فوات مطلوب {ٱلَّذِينَ ءامَنُواْ} بكل ما جاء من عند الله تعالى {وَكَانُواْ يَتَّقُونَ} والتقوى هنا التجنب عن كل إثم والتنزه عن كل ما يشغل السر عن الله تعالى والتبتل إليه تعالى بالكلية وهذا تفسير للأولياء.

{لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِي ٱلْحَيٰوةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلأٰخِرَةِ} فالبشرى في الدنيا محبة الناس لهم وذكرهم إياهم بالثناء الحسن، والرؤيا الصالحة، وبشرى الملائكة لهم عند الموت وفي الآخرة تلقى الملائكة إياهم مبشرين بالفوز والكرامة، وبياض الوجوه، وإعطاء الصحف بأيمانهم وما يقرؤون منها ومن غير ذلك من البشارات {لاَ

تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ ٱللَّهِ} أي لا خلف في أقواله {ذٰلِكَ} أي حصول البشرى لهم في الدارين {هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ} الذي لا فوز وراءه {وَلاَ يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ} أي لا تحزن بما يتفوهون به في شأنك مما لا خير فيه، ولا تبال بتكذيبهم وتشاورهم في تدبير هلاكك وإبطال أمرك.

وقرأ نافع بضم الياء وكسر الزاي {إِنَّ ٱلْعِزَّةَ للَّهِ جَمِيعاً} أي إن القوة لله جميعاً فهو يعصمك منهم وينصرك عليهم حتى تكون أقوى منهم {هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ} أي يسمع ما يقولون في حقك ويعلم ما يعزمون عليه وهو مكافئهم بذلك {أَلاۤ إِنَّ للَّهِ مَن فِى ٱلسَّمَٰوٰتِ وَمَنْ فِى ٱلأَرْضِ} من الملائكة والثقلين، وإذا كان هؤلاء في ملكه تعالى فالجمادات أحق أن لا تكون شركاء له تعالى {وَمَا يَتَّبِعُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُرَكَآءَ} أي وما يتبع الذين يعبدون من دون الله آلهة شركاء ف«آلهة» مفعول «يدعون» و«شركاء» مفعول «يتبع» {إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ ٱلظَّنَّ} أي إن المشركين ما اتبعوا شريك الله تعالى إنما اتبعوا شيئاً ظنوه شريكاً لله تعالى {وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ} أي ما هم إلا يكذبون فيما ينسبونه إليه تعالى ويقدرون أن معبوداتهم شركاء تقديراً باطلاً {هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُواْ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِراً} أي هو الذي صيَّر لكم الليل لتستريحوا فيه من تعب النهار والنهار مضيئاً لتهتدوا به في حوائجكم بالإبصار ولتتحركوا فيه لمعاشكم {إِنَّ فِى ذٰلِكَ} أي الجعل {لآيَٰتٍ} أي لعبرات {لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ} مواعظ القرآن فيعلمون بذلك أن الذي خلق هذه الأشياء كلها هو الله المنفرد بالوحدانية في الوجود {قَالُواْ} أي كفار مكة: {ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَداً} أي الملائكة بنات الله {سُبْحَٰنَهُ} قال تعالى ذلك تنزيهاً لنفسه عما نسبوه إليه وتعجيباً من كلمتهم الحمقاء {هُوَ ٱلْغَنِيُّ} عن كل شيء في كل شيء {لَهُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوٰتِ وَمَا فِى ٱلأَرْضِ} من ناطق وصامت ملكاً وخلقاً {إِنْ عِندَكُمْ مِّن سُلْطَانٍ بِهَٰذَآ} أي ما عندكم حجة بهذا القول الباطل {أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ} أي أتنسبون إليه تعالى ما لا يجوز نسبته إليه تعالى جهلاً منكم {قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لاَ يُفْلِحُونَ} أي لا يصلون إلى مقاصدهم وكل من قال في ذات الله تعالى وصفاته قولاً بغير علم، وبغير حجة بينة كان داخلاً في هذا الوعيد {مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُواْ يَكْفُرُونَ} أي حياتهم متاع قليل في الدنيا، ثم لا بد من الموت وعند الموت لا بد من الرجوع إلى الله، وعند هذا الرجوع لا بد وأن يذيقهم الله العذاب الشديد بسبب كونهم كافرين فأين هم من الفلاح؟ {وَٱتْلُ

عَلَيْهِمْ} أي المشركين {نَبَأَ نُـوحٍ} أي خـبره مـع قـومه الـذين هـم أشباه قومك في العناد ليصير داعياً إلـى مفارقـة الإنكـار للتوحيـد والنبوة {إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ} وهم بنو قابيـل {يٰقَـوْمِ إِن كَـانَ كَبُـرَ} أي ثقل {عَلَيْكُمْ مَّقَامِى} أي مكثي فيكم مدة طويلة {وَتَـذْكِيرِى} أي وعظي إياكم {بِآيَـاتِ ٱللَّـهِ} أي بحجتـه {فَعَلَـى ٱللَّـهِ تَـوَكَّلْتُ} أي فوضت أمري إلى الله {فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ} أي فاعزموا على أمركم الذي تريدون بي من السعي في إهلاكي {وَشُرَكَآءَكُمْ} أي وادعـوا من يشاركونكم في الدين والقول، أو ادعوا أوثانكم التي سميتموها بالآلهة وتقدير «ادعوا» هو كما في مصحف أبـي، ويصـح أن يكـون و«شركاءكم» مفعولاً معه مـن الضـمير فـي «فـأجمعوا». وقـرأه الحسن وجماعة من القراء بالرفع عطفاً عليه {ثُمَّ لاَ يَكُـنْ أَمْرُكُـمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً} أي خفياً. وليكن ظاهراً {ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ} أي أدوا إليَّ ذلـك الأمـر الـذي تريـدون بـي ونفـذوه إلـيَّ {وَلاَ تُنظِـرُونَ} أي لا تمهلون بعد إعلامكم إياي ما اتفقتم عليه.

{فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِّنْ أَجْرٍ} أي إن أعرضتم عن نصيحتي فلا ضير علي لأني ما سألتكم بمقابلة وعظي من أجـر تـؤدونه إلـيَّ حتى يؤدي ذلك إلـى إعراضـكم {إِنْ أَجْـرِىَ إِلاَّ عَلَـى ٱللَّـهِ} أي مـا ثـوابي علـى التـذكير إلا عليـه تعـالى يـثيبني بـه آمنتـم أو تـوليتم {وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِـنَ ٱلْمُسْـلِمِينَ} أي وإنـي مـأمور بالاستسـلام لكل ما يصل إليَّ منكم لأجل هذه الدعوة {فَكَـذَّبُوهُ} أي اسـتمروا على تكذيب نوح بعدما بين لهم المحجـة {فَنَجَّيْنَـاهُ وَمَـن مَّعَـهُ فِـى ٱلْفُلْكِ} أي السفينة من المسلمين من الغرق وكـانوا أربعيـن رجلاً وأربعيـن امـرأة {وَجَعَلْنَـاهُمْ} أي أصـحاب نـوح {خَلاَئِـفَ} مـن الهالكين بالغرق فيسكنون في الأرض {وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَٰتِنَا} بالطوفان {فَٱنظُرْ} يا أشرف الخلق {كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلْمُنْـذَرِينَ} أي كيف صار آخر أمر الذين أنذرتهم الرسل فلم يؤمنـوا {ثُـمَّ بَعَثْنَـا مِن بَعْدِهِ رُسُلاً إِلَىٰ قَوْمِهِمْ} كان منهم هود وصالح وإبراهيم ولـوط وشـعيب {فَجَـآءُوهُمْ بِـ ٱلْبَيِّنَٰتِ} أي فجـاء كـل رسـول قـومه المخصوصين بالمعجزات الدالة على صـدق مـا قـالوا {فَمَـا كَـانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ بِهِ مِن قَبْلُ} أي فما كانوا ليصدقوا بما كـذبوا بـه من أصول الشرائع التي أجمعت عليها الرسل قاطبة.

ودعوا أممهم إليها من قبل مجيء رسلهم أي كانت حالهم بعد مجيء الرسل كحالهم قبل ذلك كأن لم يبعث إليهـم أحـد {كَـذَٰلِكَ} أي مثل ذلك الطبع {نَطْبَعُ عَلَىٰ قُلـوبِ ٱلْمُعْتَـدِينَ} أي المتجـاوزين عن الحدود في كل زمن {ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِمْ} أي مـن بعـد أولئـك الرسل {مُّوسَىٰ وَهَٰرُونَ إِلَىٰ فِرْعَـوْنَ وَمَلَئِـهِ} أي وأشـراف قـومه

{بِآيَٰتِنَا} أي التسع: اليد، والعصا، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، والسنين، وطمس الأموال، {فَٱسْتَكْبَرُواْ} أي فأتياهم فبلغاهم الرسالة فاستكبروا عن اتباعهما أي ادعوا الكبر من غير استحقاق {وَكَانُواْ قَوْماً مُّجْرِمِينَ} أي دوي آثام عظام فلذلك اجترأوا على الاستهانة برسالة الله تعالى {فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا} وهو العصا واليد البيضاء {قَالُواْ} من فرط عنادهم {إِنَّ هَٰذَا} أي الذي جاء به موسى {لَسِحْرٌ مُّبِينٌ} أي ظاهر يعرفه كل أحد {قَالَ مُوسَىٰ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ} ما تقولون من أنه سحر {أَسِحْرٌ هَٰذَا} أي أسحر هذا الذي أمره واضح مكشوف وشأنه مشاهد معروف {وَلاَ يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ} أي والحال أنه لا يفلح فاعلو السحر وهذه جملة حالية من الواو في أتقولون {قَالُوۤاْ} لموسى وهارون عاجزين عن المحاجة {أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا} أي لتصرفنا {عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءابَاءَنَا} أي من عبادة الأصنام {وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ} أي الملك والعز {فِى ٱلأَرْضِ} أي أرض مصر {وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ} أي بمصدقين {وَقَالَ فِرْعَوْنُ} لملئه: {ٱئْتُونِى بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ} بفنون السحر حاذق فيه. وقرأ حمزة والكسائي سحار {فَلَمَّا جَآءَ ٱلسَّحَرَةُ} أي فأتوا بالسحرة قالوا لموسى: إما أن تلقي وإما أن نكون نحن الملقين {قَالَ لَهُمْ مُّوسَىٰ أَلْقُواْ مَآ أَنتُمْ مُّلْقُونَ} أي ما معكم من الحبال والعصي.

{فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ} حبالهم وعصيهم واسترهبوا الناس {قَالَ} لهم {مُوسَىٰ مَا جِئْتُمْ بِهِ ٱلسِّحْرُ} أي الذي جئتم به هو السحر أي التمويه الذي يظهر بطلانه لا ما سماه فرعون وقومه سحراً فهو من آيات الله تعالى. وقرأ أبو عمرو «آلسحر» بهمزة الاستفهام بإبدال الهمزة الثانية ألفاً ومدها مداً لازماً أو بتسهيلها من غير قلب وعلى كليهما تجب الإمالة في موسى، والمعنى الذي جئتم به أهو السحر أم لا؟ وهو استفهام وجه التحقير والتوبيخ {إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُ} أي سيهلكه بالكلية ويظهر فضيحة صاحبه للناس والسين للتأكيد {إِنَّ ٱللَّهَ لاَ يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ} أي لا يكمله {وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ} أي يظهره ويقويه {بِكَلِمَٰتِهِ} أي بوعده لموسى وقضائه {وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ} ذلك {فَمَآ ءامَنَ لِمُوسَىٰ إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ} أي فما آمن من قوم موسى إلا قليل منهم وهم بنو إسرائيل الذين كانوا بمصر من أولاد يعقوب وذلك أن موسى دعا الآباء إلى دينه فلم يجيبوا خوفاً من فرعون وأجابته طائفة من شبانهم مع الخوف {عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ} أي مع خوف من فرعون لأنه كان شديد البطش وخوف على رؤساء الذرية فإن أشراف بني إسرائيل كانوا يمنعون أولادهم من

إجابة موسى خوفاً من فرعون عليهم وعلى أنفسهم {أَن يَفْتِنَهُمْ} أي يصرفهم عن الإيمان بتسليط أنواع العذاب عليهم {وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي ٱلأَرْضِ} أي لغالب في أرض مصر {وَإِنَّهُ لَمِنَ ٱلْمُسْرِفِينَ} أي المجاوزين الحد بكثرة القتل والتعذيب لمن يخالفه في أمره من الأمور، وبالكبر حتى ادعى الربوبية واسترق أسباط الأنبياء {وَقَالَ مُوسَىٰ} لمن آمن به {يٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءامَنْتُمْ بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوۤاْ} ولا تخافوا أحداً غيره {إِن كُنْتُمْ مُّسْلِمِينَ} أي منقادين لأمره تعالى.

قال الفقهاء: الشرط المتأخر يجب أن يكون متقدماً، مثاله: قول الرجل لامرأته: إن دخلت الدار فأنت طالق، إن كلم ت زيداً فمجموع قوله: إن دخلت الدار فأنت طالق مشروط بقوله: إن كلمت زيداً، والمشروط متأخر عن الشرط، فكأنه يقول لامرأته: حال ما كلمت زيداً إن دخلت الدار فأنت طالق، فلو حصل هذا التعليق قبل أن كلمت المرأة زيداً لم يقع الطلاق فقوله تعالى: {وَقَالَ مُوسَىٰ يٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءامَنْتُمْ بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ} يقتضي أن يكون كونهم مسلمين شرطاً لأن يصيروا مخاطبين بقوله تعالى: {وَقَالَ مُوسَىٰ يٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءامَنْتُمْ} فكأنه تعالى يقول للمسلم حال إسلامه: إن كنت من المؤمنين بالله فعلى الله توكل والأمر كذلك، لأن الإسلام هو الانقياد لتكاليف الله وترك التمرد، والإيمان هو معرفة القلب بأن واجب الوجود لذاته واحد وما سواه محدث تحت تصرفه وإذا حصلت هاتان الحالتان فعند ذلك يفوض العبد جميع أموره إلى الله تعالى ويحصل في القلب نور التوكل على الله تعالى {فَقَالُواْ} مجيبين له عليه السلام: {عَلَىٰ ٱللَّهِ تَوَكَّلْنَا} ولا نلتفت إلى أحد سواه، ثم دعوا ربهم قائلين {رَبَّنَا لاَ تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ} أي لا تجعلنا مفتونين لهم أي لا تمكنهم من أن يحملونا بالقهر على أن ننصرف عن هذا الدين الحق الذي قبلناه {وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ} أي خلصنا برحمتك من أيدي فرعون وقومه ومن سوء جوارهم وشؤم مصاحبتهم {وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا} أي اجعلا بمصر بيوتاً لقومكما ومرجعاً ترجعون إليه للعبادة {وَ ٱجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً} أي مصلى {وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ} في بيوتكم إن موسى ومن معه كانوا في أول أمرهم مأمورين بأن يصلوا في بيوتهم لئلا يظهروا على الكفرة فيؤذوهم ويفتنوهم عن دينهم كما كان المؤمنون في أول الإسلام بمكة على هذه الحالة {وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ} بالنصر في الدنيا وبالجنة في العقبى وخصَّ الله تعالى موسى بالبشارة، لأنه الأصل في الرسالة، وهارون تبع له. {وَقَالَ

مُوسَىٰ رَبَّنَآ إِنَّكَ ءاتَيْتَ فِرْعَـوْنَ وَمَلأَهُ} أي أشـراف قـومه {زِينَـةً} أي ما يتزين به من اللباس والمراكب ونحوها. {وَأَمْوَالاً} كثيرة من الـذهب والفضـة وغيرهمـا {فِـى ٱلْحَيَـوٰةِ ٱلـدُّنْيَا رَبَّنَـا لِيُضِـلُّواْ عَـن سَبِيلِكَ} دعا عليهم بلفظ الأمر. والمعنى ربنا ابتلهـم بالضـلال عـن سبيلك {رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰ أَمْوٰلِهِمْ}.

قال ابن عباس: بلغنا أن الـدراهم والـدنانير صـارت حجـارة منقوشة كهيئتهـا صـحاحاً وأنصـافاً وأثلاثـاً وجعـل سـكرهم حجـارة {وَ ٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ} أي اجعلها قاسية ومربوطة حتى لا تلين ولا تنشرح للإيمان {فَلاَ يُؤْمِنُواْ} جواب للدعاء أو دعاء بلفظ النهي، أو عطف على «ليضلوا» {حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلأَلِيمَ} وإذا دعا موسى عليهم بهذا الدعاء لما علم أن سابق قضاء الله وقدره فيهم أنهـم لا يؤمنون فوافق دعاء موسى ما قدر وقضى عليهم.

{قَالَ} الله لموسى وهارون: {قَدْ أُجِيبَتْ دَّعْوَتُكُمَا} فموسى كان يدعو هارون كان يؤمن والتأمين دعاء، وحصول المدعو به بعـد أربعيـن سـنة لأن فرعـون لبـث بعـد هـذا الـدعاء أربعيـن سـنة {فَٱسْتَقِيمَا} أي فاثبتا على ما أنتما عليه من الدعوة وإلزام الحجـة ولا تسـتعجلا {وَلاَ تَتَّبِعَـآنِّ سَـبِيلَ ٱلَّـذِينَ لاَ يَعْلَمُـونَ} بعـادات اللـه تعالى فـي تعليـق الأمـور بالمصـالح والحكـم، أي ولاتسـلكا طريـق الجاهلين الذين يظنون أنه متى كـان الـدعاء مجابـاً كـان المقصـود حاصلاً في الحال، والاستعجال وعـدم الوثـوق بوعـد اللـه يصـدران من الجهال. {وَجَاوَزْنَا بِبَنِىۤ إِسْرٰءِيلَ ٱلْبَحْرَ} أي جعلنـاهم مجـاوزين بحر السويس بأن جعلناه يبساً وحفظناهم حتى بلغوا الشط.

قال أهل التفسير: اجتمع يعقوب وبنوه على يوسف وهم اثنان وتسعون، وخرج بنوه مع موسى من مصر وهم ستمائة ألف، وذلك لما أجاب الله دعاء موسى وهارون أمرهما بالخروج ببني إسـرائيل من مصر فخرجوا، وقد كان فرعـون غـافلاً عـن ذلـك، فلمـا سـمع بخروجهم خرج بجنوده في طلبهم فلما أدركهم قالوا لموسى: أيـن المخلص والبحر أمامنا والعدو وراءنا؟ فأوحى اللـه إليـه أن اضـرب بعصـاك البحـر فضـربه، فـانفلق، فقطعـه موسـى وبنـو إسـرائيل، فلحقهم فرعون وكان على حصـان أدهـم، وكـان معـه ثمانيـة آلاف حصان على لون حصانه سوى سائر الألوان، وكان يقـدمهم جبريـل على فرس أنثى وميكائيل يسوقهم حـتى لا يشـذ منهـم أحـد، فـدنا جبريل بفرسه فلما وجد الحصان ريح الأنثى لم يتمالك فرعون مـن أمره شيئاً فنزل البحر وتبعـه جنـوده حـتى إذا اكتملـوا جميعـاً فـي البحر وهمَّ أولهم بالخروج انطبق البحـر عليهـم {فَـأَتْبَعَهُمْ فِرْعَـوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا} أي مفرطين في محبة قتلهم ومجاوزين الحـد

{حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُ} أي بأن الشأن {لآ إِلَـٰهَ إِلاَّ ٱلَّذِى ءَامَنَتْ بِهِ بَنوۤاْ إِسْرَٰءِيلَ وَأَنَاْ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ} أي الذين أسلموا نفوسهم لله فقال له جبريل: {ءَاۤلأنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ} أي الآن تؤمن وتتوب وقد صنعت التوبة في وقتها، وآثرت دنياك الفانية على الآخرة الباقية، وقد كنت من الغالين في الضلال والإضلال عن الإيمان، ولم يقبل ذلك من فرعون لأنه إنما آمن عند نزول العذاب وإنما أقر بعزة الربوبية ووحدانية الله تعالى ولم يقر بنبوة موسى ولأن ذلك الإقرار كان مبيناً على محض التقليد وهو كان دهرياً منكراً لوجود الصانع، وإنما ذكر هذه الكلمة ليتوسل بها إلى دفع تلك البلية الحاضرة {فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ} أي نلقيك على نجوة من الأرض وهي المكان المرتفع بدرعك وكانت له درع من الذهب يعرف بها.

وقرىء «ننجيك» بالحاء أي نلقيك بناحية الساحل {لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً} أي لمن وراءك آية وهم بنو إسرائيل إذ قالوا: ما مات فرعون وإنما قالوا ذلك لعظمته عندهم ولما حصل في قلوبهم من الرعب من أجله فأمر البحر فألقاه على الساحل أحمر قصيراً كأنه ثور فرآه بنو إسرائيل فعرفوه، وقرىء «لمن خلفك» فعلاً ماضياً أي لتكون لمن يأتي بعدك من الأمم نكالاً من الطغيان، وقرىء «لمن خلقك» بالقاف أي لتكون لخالقك آية كسائر آياته فإن إفراده تعالى إياك بالإلقاء إلى الساحل لإبطال دعوى ألوهيتك لأن الإله لا يموت {وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءايَـٰتِنَا لَغَـٰفِلُونَ} أي لا يتفكرون فيها {وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىۤ إِسْرَٰءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ} أي أسكناهم بعدما أنجيناهم وأهلكنا أعداءهم منزلاً صالحاً مرضياً وهو الشام ومصر بلاد البركة والخصب، وأورثهم الله جميع ما كان تحت أيدي فرعون وقومه {وَرَزَقْنَـٰهُمْ مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ} أي اللذائذ {فَمَا ٱخْتَلَفُواْ} في أمر دينهم {حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ} أي حتى قرأوا التوراة فحينئذ تنبهوا للمسائل والمطالب ووقع الاختلاف بينهم {إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ} فيميز المحق من المبطل، والصديق من الزنديق {فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَاسْأَلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ} أي القرآن {مِن رَّبِّكَ} في خبر الأولين {فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ} أي الشاكين.

{وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَـٰتِ ٱللَّهِ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ} أنفساً وأعمالاً وهذا كله خطاب للنبي ظاهر، أو المراد به غيره ممن عنده شك، ومثل هذا معتاد فإن السلطان الكبير إذا كان له أمير وكان تحت راية ذلك الأمير جمع فإذا أراد أن يأمر الرعية بأمر

مخصوص فإنه يوجه الخطاب على ذلك الأمير ليكون ذلك أقوى تأثيراً في قلوبهم. وقيل: هذا الخطاب ليس مع الرسول صلى الله عليه وسلم وذلك أن الناس في زمانه كانوا فرقاً ثلاثة المصدقون به والمكذبون له والمتوقفون في أمره، الشاكون فيه فخاطبهم الله تعالى بهذا الخطاب فقال: إن كنت أيها الإنسان في شك مما أنزلنا إليك من الهدى على لسان محمد فاسأل أهل الكتاب ليدلوك على صحة نبوته وهم عبد الله بن سلام وعبد الله بن صوريا، وتميم الداري، وكعب الأحبار لأنهم هم الذين يوثق بخبرهم {إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ} أي ثبت عليهم حكمه بأنهم يموتون على الكفر ويخلدون في النار {لاَ يُؤْمِنُونَ} أبداً إذ لا كذب في كلامه {وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءايَةٍ} أي ولو جاءتهم الدلالة التي لا حصر لها لأن الدليل لا يهدي إلا بإعانة الله تعالى {حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلْعَذَابَ ٱلأَلِيمَ} كدأب آل فرعون وأشباههم {فَلَوْلاَ كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَانُهَا إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُواْ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلخِزْيِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا}. قال أبو مالك صاحب ابن عباس: كل ما في كتاب الله تعالى من ذكر «لولا» فمعناه هلا إلا حرفين فلولا كانت قرية آمنت فمعناه فما كانت قرية آمنت فلولا كان من القرون من قبلكم فمعناه فما كان من القرون وتقدير الآية فما كان أهل قرية آمنوا فنفعهم إيمانهم إلا قوم يونس لما آمنوا أول ما رأوا أمارة العذاب صرفنا عنهم العذاب في الحياة الدنيا {وَمَتَّعْنَاهُمْ} بمتاع الدنيا بعد صرف العذاب عنهم {إِلَىٰ حِينٍ} أي إلى وقت انقضاء آجالهم.

روي أن يونس عليه السلام بعث إلى نينوى من أرض الموصل فكذبوه فذهب عنهم مغاضباً فلما فقدوه خافوا نزول العذاب فلبسوا المسوح وعجوا أربعين ليلة وكان يونس قال لهم: إن أجلكم أربعون ليلة فقالوا: إن رأينا أسباب الهلاك آمنا بك فلما مضت خمس وثلاثون ليلة ظهر في السماء غيم أسود هائل فظهر منه دخان شديد، وهبط ذلك الدخان حتى وقع في المدينة، وسوَّد سطوحهم، فخرجوا إلى الصحراء، وفرقوا بين النساء وبين الدواب وأولادها، فحنَّ بعضها إلى بعض وعلت الأصوات، وكثرت التضرعات، وأظهروا الإيمان والتوبة وتضرعوا إلى الله تعالى فرحمهم، وكشف عنهم، وكان ذلك اليوم يوم عاشوراء يوم الجمعة. وعن الفضل بن عباس أنهم قالوا: اللهم إن ذنوبنا قد عظمت وجلت وأنت أعظم وأجل، افعل بنا ما أنت أهله ولا تفعل بنا ما نحن أهله، وخرج يونس ينتظر العذاب فلم يرَ شيئاً فقيل له: ارجع إلى قومك. قال: وكيف أرجع إليهم فيجدوني كذاباً وكان كل

من كذب ولا بينة له قتل فانصرف عنهم مغاضباً فالتقمه الحوت {وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِى ٱلأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا} أي مجتمعين على الإيمان لا يختلفون فيه لكنه لا يشاؤه {أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ} على ما لم يشأ الله منهم {حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤْمِنِينَ} أي لا قدرة لك على التصرف في أحد {وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلاَّ بِإِذْنِ ٱللَّهِ} أي وما يتأتى لنفس واحدة أن يقع يها إيمان في وقت ما إلا بإرادة الله وبإقداره عليه {وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ} أي الكفر {عَلَى ٱلَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ} أي الذين لا يستعملون عقولهم بالنظر في الدلائل والمضارع بمعنى الماضي وهو معطوف على مقدر، والتقدير فأذن الله لبعضهم في الإيمان وجعل الكفر لبعض آخر {قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوٰتِ وَٱلأَرْضِ} أي قل يا أشرف الخلق مخاطباً لأهل مكة: تفكروا أيّ شيء بديع في السموات والأرض من عجائب صنع الله الدالة على وحدته وكمال قدرته {وَمَا تُغْنِى ٱلآيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ} وما تنفع الدلائل السماوية والأرضية والرسل المنذرون عن قوم لا يؤمنون في علم الله تعالى وحكمه.

{فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلاَّ مِثْلَ أَيَّامِ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِهِمْ} أي فما ينتظر المشركون إلا عذاباً مثل عذاب الأمم الماضية من الكفار {قُلْ فَٱنْتَظِرُواْ} نزول العذاب {إِنَّى مَعَكُمْ مِّنَ ٱلْمُنْتَظِرِينَ} لذلك {ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا} أي أهلكنا الأمم ثم نجينا رسلنا المرسلة إليهم {وَٱلَّذِينَ ءامَنُواْ} لأن العذاب لا ينزل إلا على الكفار {كَذَٰلِكَ} أي مثل ذلك الإنجاء الذي نجينا الرسل ومن آمن بهم {حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ} بك يا أشرف الخلق من كل شدة وعذاب وجب ذلك علينا وجوباً بحسب الوعد والحكم لا بحسب الاستحقاق، لأن العبد لا يستحق على خالقه شيئاً {قُلْ} لجمهور المشركين: {يٰأَيُّهَا ٱلنَّاسُ} أي أهل مكة {إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى} الذي أدعوكم إليه، أي إن كنتم لا تعرفون ديني فأنا أبينه لكم على سبيل التفصيل {فَلاَ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ} في وقت من الأوقات {وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّاكُمْ} بقبض أرواحكم ثم يفعل بكم ما يفعل من فنون العذاب {وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ} بما دل عليه العقل ونطق به الوحي {وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ} أي وأمرت بتوجيه العقل بالكلية إلى طلب الدين وبالاستقامة في الدين بأداء الفرائض والانتهاء عن القبائح وباستقبال القبلة في الصلاة {حَنِيفًا} أي مائلاً إلى الدين ميلاً كلياً معرضاً عمّا سواه إعراضاً كلياً فقوله: {وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ} إشارة إلى تحصيل أصل الإيمان. وقوله: {وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدّينِ حَنِيفًا} إشارة إلى الاستغراق في نور الإيمان. {وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ} أي

وأمرت بأن لا ألتفت إلى غير ذلك الدين فمن عرف مولاه والتفت بعد ذلك إلى غيره كان ذلك الالتفات شركاً هذا هو الذي تسميه أصحاب القلوب بالشرك الخفي {وَلاَ تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ} أي لا تعبد من غير الله {مَا لاَ يَنفَعُكَ وَلاَ يَضُرُّكَ} فلا نافع إلا الله ولا ضار إلا الله، ولا حكم إلا لله، ولا رجوع في الدارين إلا إلى الله وهذه الجملة عطف على جملة الأمر وهي أقم فتكون داخلة في صلة أن المصدرية {فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ} أي لو اشتغلت بطلب المنفعة والمضرة من غير الله فأنت من الواضعين للشيء في غير موضعه وطلب الشبع من الأكل، والري من الشرب لا يقدح في الإخلاص لأن وجود الخبز وصفاته كلها بإيجاد الله وطلب الانتفاع بشيء خلقه الله لذلك لا يكون منافياً للرجوع بالكلية إلى الله إلا أن شرط هذا الإخلاص أن لايقع بصر عقله على شيء من هذه الموجودات إلا ويشاهد بعين عقله أنها معدومة بذواتها وموجودة بإيجاد الله فحينئذ يرى ما سوى الله عدماً محضاً بحسب أنفسها ويرى نور وجوده تعالى وفيض إحسانه عالياً على الكل {وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ} أي إن يصبك بضر كمرض وفقر {فَلاَ كَاشِفَ لَهُ} أي فلا رافع لذلك الضر {إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلاَ رَآدَّ لِفَضْلِهِ} أي وإن يرد أن يصيبك بخير فلا دافع لعطيته الذي أرادك به ولم يستثن الله تعالى مع الإرادة، لأن إرادة الله تعالى قديمة لا تتغير بخلاف مس الضر فإنه صفة فعل.

قال الرازي: وتقديم الإنسان في اللفظ وهو المشار إليه بالخطاب دليل على أن المقصود هو الإنسان أما سائر الخيرات فهي مخلوقة لأجله {يُصَيبُ بِهِ} أي يخص بالفضل الواسع المنتظم لما أرادك به من الخير {مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ} ممن كان أهلاً لذلك {وَهُوَ ٱلْغَفُورُ} أي البالغ الستر للذنوب {ٱلرَّحِيمُ} أي البالغ في الإكرام {قُلْ} مخاطباً لأولئك الكفرة لأجل أن تنقطع معذرتهم {يٰأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ} وهو القرآن العظيم المشتمل على محاسن الأحكام {فَمَنُ ٱهْتَدَىٰ} بالإيمان به {فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِ} أي فمنفعة اهتدائه لها خاصة {وَمَن ضَلَّ} بالإعراض عنه {فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا} أي فوبال الضلال مقصور على نفسه {وَمَآ أَنَاْ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ} أي بحفيظ موكول إلى أمركم وإنما أنا بشير ونذير فلا يجب علي السعي في إيصالكم إلى الثواب وفي تخليصكم من العذاب {وَ ٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ} أي يؤمر لك في القرآن من تبليغ الرسالة {وَ ٱصْبِرْ} على ما يطرأ عليك من مشاق التبليغ {حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ} بالأمر بالقتال {وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ} فحكم بالجهاد وبالجزية على أهل الكتاب وأنشد بعضهم في الصبر

شعراً فقال: سأصبر حـتى يعجـز الصـبر عـن صـبري وأصـبر حـتى يحكم الله في أمري سأصبر حتى يعلـم الصـبر أننـي صـبرت علـى شيء أمر من الصبر.